

دراسة أدبية وقيمية روحية في ظلال الشعر الجاهلي

Dr. Mohamed Sulthan Mohamed Saleem Nadvi

Department of Arabic and Islamic Studies,
University of Peradeniya, Sri Lanka.

الأستاذ الدكتور محمد سليم محمد سلطان الندوي

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية،
جامعة بيرادينيا، سريلنكا.

ملخص البحث

عرف العصر الجاهلي بعصر الشعر والمعلقات، وكان الشعر ديوانهم وحياتهم وحقيقتهم وصورتهم وصفتهم. وكان الشاعر رئيس القبيلة ولسانها، وهو يصوّر قيم مجتمعه ومزاياهم وشخصياتهم ومفاخرهم كما يفيض لسانه بالشعر الديني الروحي الجذاب للمتذوقين في الشعر العربي كما قال الشعر في أغراض كثيرة. فنحاول أن نكشف في هذا البحث ما يضمن الشعر الجاهلي بالأمور المحبوبة الغامضة، والقيم الروحية في هذا الميدان. ولو وصف عصرهم عصرا جاهليا وعصرا خلفيا وعنصريا في ميدان، ولكن له تاريخ عريق ومحمود بقيم عالية يسجله مجرى التاريخ في آخر. فنحاول في هذا البحث التاريخي أن نكتشف من القيم المحمودة التي لفتت فكرة المتذوقين في الأدب العربي الجاهلي مما يشمل من الأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة والمعاني الروحية التي صيغت وانسكبت على لسان الشعراء الجاهليين.

الكلمات المفتاحية: العصر الجاهل، المعاني الروحية، الشعر الجاهل

الجاهلية وملكة شعرهم

تاريخ أوائل الأدب الجاهلي مفقود غير مسجل. ولكنه يذكر قرنا ونصفا قبل البعثة النبوية مما خط امرأ القيس ومهلل حيث يقول عنه الجاحظ: "أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن. أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلل بن ربيعة. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - مائة وخمسين عاما، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"¹ وإن ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول، ويمكن تسميته بالجاهلية الأولى.²

فالشعر عقلية الأمة التي يظهر فيها آرائهم وحياتهم. وكان الشاعر الجاهلي يتوخى أغراض الشعر الجاهلي ومذاهبه، ويصدر حكمه الشامل الذي ينبع على التأثر والانفعال الفطري. ويذكر البعض "والشعر الجاهلي قائم على الإحساس المادي"³ وكان الشعر الجاهلي يعبر عن خشونة ألفاظ الشاعر تارة وعن نعومتها تارة أخرى، أو يعبر عن فظاظة طباعه، وانفعالاته الفطرية

1. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، طبعة الحلبي، ج1، ص: 74

2. شوقي ضيف، 1960، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط 11، ص 38

3. ثريا عبد الفتاح، القيم الروحية في الشعر العربي، ص: ٥١

الثائرة أو عن لطيف معشره وأدبها¹. ولكن نجد عند الدراسة عن أشعار الجاهلية خلاف ذلك من الغرائز الفطرية الفاضلة، والأخلاق الكريمة والاجتماعية التي انضم بها حياة المجتمع الإنساني.

الإنسانية في الأدب العربي القديم

وصف العرب العصر الذي كان قبل بعثة الرسالة المحمدية بالعصر الجاهلي. ولو بحثنا عن العوامل التي أثرت في الشعر العربي القديم فوجدناها كالبينة ونظام القصيدة والتقاليد ورجال الدين وفقدان الحرية وعدم الإيمان بقيمة الإنسان، وضعف النقد، ومع غلبة هذه السلبيات يتضح في قصائده الأدب الصادق مثل كونه إنسانياً، روحياً بطبعه. وإن الأدب الحقيقي الخالد هو الذي يتناول مواضيع إنسانية يشترك فيها العالم بأسره، فيغنيها بلسان، ويخلق بنا في السماوات بعيداً عن سفافس الأرض، معتصماً بالمثل العليا والأخلاق الفاضلة. وقلنا إن المواضيع التي يعالجها في الأدب الشعري هي مواضيع إنسانية ملازمة تخطر ببال كل إنسان فيسأل عنها ويتأمل فيها، لأن في كل إنسان روحاً حساسة. وأما الشعراء فهم الذين ينقلون إلينا تجاربهم الناضجة التي تهز الإنسانية جمعاء، فهي مواضيع روحية إنسانية. إن بعض النقاد القدامى أشاروا إلى المعاني الشريفة التي اعتبرناها قيماً روحية إنسانية، فرحنا نتحرى مواطنها في الشعر العربي القديم². وإن الأدب الحقيقي هو الذي يرفعنا عن المادة، فإن هؤلاء لم يبتعدوا عن اتباع قيم جليلة ومحمودة لدى الإنسانية كما كان لديهم بعض الصفات الرذيلة.

ولو لفتنا النظر بحياة حاتم الطائي فإنه يتمثل مضرب مثل في الجود عند العرب، وافتخرت به قبيلته وانتشر صيتها. وعنترة بن شداد يكون كذلك مضرب مثل في الشجاعة لدى قبائل العرب. ومن البديهي أن حياة العرب قبل الإسلام لم تكن كلها ثأراً وسفك دماء، ولم تكن روح العصبية سداً بينهم وبين تحلّيمهم بالقيم الخلقية، مع الأخذ بالتأثر بعض الأحيان، وانتزاع الحق بالقوة، ورفض الظلم والعدوان، والتخلق بالشجاعة من أجل أهداف نبيلة. وكانت في القبائل العربية ظاهرة التكتاف والتعاون للأخوين، وفضلت القوة والمنعة والقدرة والشجاعة وكثرة العدد لديهم.

وعرف العرب بفضائل ومكارم الأخلاق، ولم يكونوا يفعلون الخير لذاته فحسب، بل كانت فيهم عقّة واعتدال وزهادة في اللذات إن كان فيها ما يخل بالمروءة، والأمثلة على هذا الموضوع غزيرة، ونذكر هنا مثالين غيضا من فيض على سبيل المثال من نصائح حاتم الطائي لزوجته، وقول المثقب العبدى:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكبلا فإنّي لست أكله وحدي
أخا طارقاً أو جار بيت فإنني أخاف مذمّات الأحاديث من بعدي³

1. ثريا عبد الفتاح، القيم الروحية في الشعر العربي، ص: 57

2. المصدر نفسه، ص: 71

3. ديوان حاتم، ص 43

وقال المثقّب العبدى:

أجعل المال لعرضي جنّة إنّ خير المال ما أدّى الذمم¹

القيم المحمودة في ظلال الشعر الجاهلي

إنّ صفحات العصر الجاهليّ مزوّدة بالقيم المحمودة، ومما عبر عنها الشعراء العرب القدامى في ميدان الأدب الجاهلي ما

يلي:

الكرم

وهو من أبرز صفات العرب في العصر الجاهلي، لأن هذه الخصلة من مباحاتهم. وله كلمات عديدة في العربية كالكرم والجود والسّخاء والعطاء والجدوى أو الجداء والنوال والمدد والعون والغناء وغيرها غزير في المعاجم، ورفعوا من كان لديه فضل الكرم، ودعي صاحب الكرم من عظماء قومه، وشرف صاحبه² وسئل بعض الأعراب عن الكرم، فقال: "طعام مبذول، ونائل موصول، ووفاء لا يحول"³. ووصفه العرب بأنّه من أشرف ملابس الدنيا، به الحمد، ويرفع الذم، ويستتر العيب، ويحى العرض، كما قال الشاعر:

ندافع عن أحسابنا بلحومها وألبانها إنّ الكريم مدافع⁴

ومن أبرز صفات القيادة والسيادة الكرم فهو من ميزة العشيرة، والكرم يستشار في الأمور التي تهّم القبيلة، وقال حاتم:

يقولون لي أهلك مالك فاقتصد وما كنت لولا ما تقولون سيّدا⁵

ولولا زهير لما ذكر هرم بن سنان، ولولا المتنبي لما اشتهر سيف الدولة، فالشعراء هم الذين يخلدون الأشخاص، ونعلم أنّ

سبب تخليد الشعر لهؤلاء هو كرمهم. فقد كان هرم بن سنان كريما حين دفع الديات، فالكرم إذن وسيلة للثناء وبقاء الذكر، وهذا ما آمن به الناس منذ القدم.

1. المفضل الضبي، المفضليات، ص 401

2. أبو حاتم السجستاني، 1961م، المعمرين والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ص 133

3. الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، مكتبة الحياة، بيروت، ج 1، ص 647

4. أبو تمام، الحماسة، شرح الأعلام الشمتري، 1992م، تحقيق علي المفضل حمودان، مركز جمعية الماجد دبي، ج 2، ص 1008

5. ديوان حاتم، ص 75

الضيافة:

وكان العرب يعيشون في الصحراء وينتقلون من مكان إلى مكان، وكانت ظروفهم في تعاون أحد لآخر، وعند سفره وترحاله وحيدا هو يحتاج إلى مرافقة الآخرين، وفي وسط الصحراء لا ماء ولا طعام، وهو متكل بالسماء والأرض عندئذ، لا يكون أمامه مفر يأوي إليه، فالاستفاضة ذكرت من سجايهم وواجباتهم.

كما قال حاتم الطائي لزوجته:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكیلا فإنّي لست آكله وحدي¹

فحين يتوقّى الشخص الكريم يبقى ذكره بالعتاء، هذا ما نفهمه من شعر حاتم إذ يقول:

أماو إنّ المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر²

وكان العرب مفطورين بجمع الثناء والحمد، كما قال لبيد:

أقي العرض بالمال التلاد واشترى به الحمد إنّ الطالب الحمد مشتري

وكم مشتر من ماله حسن صيته لأيامه في كلّ مبدي ومحضري³

كان العرب لا يحفظون عرضهم بالإنفاق على الآخرين، ومن شعر حاتم الطائي إذ يقول:

ذريني يكن مالي لعرضي جنّة يقي المال عرضي قبل أن تتبدّد⁴

وكان الفرخ الفرط بالضيافة لدى العرب. وقد اهتموا بضيوفهم إلى أقصى حدّ، وسبب ذلك يتبيّن في قول محمّد مبروك

نافع: "أن الامتناع عن إكرام الضيف، أو الإضرار به يعتبر جريمة من الجرائم ضدّ مبادئ الأخلاق والشرف المعترف بها في البادية"⁵

وكانوا يوقدون النيران أمام خيامهم يستجلبون بها ضيوفا ويقول حاتم أيضا لغلامه أيام الشتاء:

أوقد فإنّ الليل ليل قرّ والريح يا موقد ربح صرّ

علّ يرى نارك من يمرّ إن جلبت ضيفا فأنت حرّ⁶

1. ديوان حاتم الطائي، ص 62

2. ديوان حاتم، ص 83

3. ديوان لبيد، دار صادر، بيروت، ص 67

4. ديوان حاتم الطائي، ص 67

5. محمد مبروك نافع، 1984م، عصر ما قبل الإسلام، طبعة القاهرة، ص 210

6. ابن عبد ربّه الأندلسي، 1965م، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 3، ج 1، ص 197

الوفاء بالعهد والأمانة

كان العرب قبل الإسلام يقدرّون الوفاء بالعهد، واعتبروه كأمر عقدي، ومخالفته جرماً يهدم الشرف والأخلاق، وللوفاء الصادق احترام وخضوع حتى لقبوا النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم في الجاهلية بالأمين والصادق. فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به، وأوفت معه قبيلته.

وكانوا يضربون المثل "أوفى من السموأل" وذلك عندما أودع إمرؤ القيس عند السموأل دروعاً وسلاحاً، وذهب إلى قيصر يستنجد به على أعدائه، واستغل هذه الفرصة الحارث بن شمر الغساني فطلبها من السموأل وأصر على انتزاعها منه، ولكنه أبى وتحصن بقصره في تيماء، وكان ابنه خارج القصر، فأخذ الحارث الغساني رهينة عنده، وأخذ يساومه، وهدده بقتل ابنه إن لم يستجب لمطالبه، إلا أن السموأل ظل محافظاً على عهده فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف، والسموأل اختار الوفاء، وأسلم ابنه للقتل، حتى وهو يرى ابنه يذبح أمامه وفي ذلك يقول السموأل:¹

وفيت بذمة الكندي أني إذا ما ذم أقوام وفيت

وقد رسمت قصيدة المثقب العبيدي الوفاء فيقول فيها:

لا تقولن إذا لم ترد أن تتمّ الوعد في شيء نعم

حسن قول نعم بعد لا وقبيح قول لا بعد نعم²

رسمت هذه القصيدة جانباً من المثل الأخلاقية من حيث الوفاء بالعهد والتمسك بالكلمة والابتعاد عن الرياء والنفاق. ويحضّ الأعشى على الوفاء بالعهد وأداء الأمانة حتى ولو كلفه ذلك حياته، ويريد خلود ذكره بين الناس بأنّه وعد فأوفى، فقال:

ولا تعدن الناس ما لست منجزاً ولا تشتمن جاراً لطيفاً مصافياً

وإن امرأ أسدى إليك أمانة فأوف بها إن مت سميت وافية³

وأما عامر بن الطفيل فيصوّر لنا أنّ الشريف إذا وعد فلا بدّ من أن يكون حريصاً على الوفاء بوعدده لما فيه من خير وعلوّ مكانة بين الناس جميعاً، فيقول:

1. عروة بن الورد، 1969م، ديوانا عروة بن الورد والسموأل، دار صادر، بيروت، ص 69

2. المفضل الضبي، المفضليات، ص 166

3. مختار الشعر الجاهلي، شرح وتحقيق مصطفى السقا، ص 2\302

وإني إن أوعدته أو وعدته
لأخلف إبعادي وأنجز موعدتي¹

وقال كعب بن زهير المزني:

أرعى الأمانة لا أخون أمانتي
إنّ الخؤون على الطريق الأنكب²

فكانت كلمة الوفاء لها شعور وأثر بالغ في العصر الجاهلي، فإن لم يوف انتقصت مروءته. فالوفاء من أخلاق العرب الأصلية. فإن كان هذا حديثهم عن الوفاء فليس معنى ذلك أنّ الغدر ونقض العهد ما وجد هناك، بل وجد فيهم هذا وذاك، وتلك سنة الحياة وطبيعة المجتمعات البشرية في كلّ الأزمنة والأمكنة.

الحلم

وكان إلهانف بن قيس يقول: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم الذي جاءه خبر قتل ابنه، فلما جاءوا بالقاتل، أقبل عليه وقال لمن حوله: أربعتم الفتى، ثم دنا منه وقال: يا بني لقد نقصت عددك وأوهنت ركنك وفتت في عضدك، وأشمت عدوك وأسأت لقومك، ثم أمر أن يخلوا سبيله، وما حل حبوته ولا تغير وجهه.³

كان في العرب حلماء عدوا مضرب الأمثلة في الحلم، غير أنّ الحلماء كانوا قلة، وكان الحلم يعتبر من الفضائل، ولم يتصف به منهم إلا بعض كبار السن. غير أنّ هؤلاء الحلماء كانوا إذا ثاروا جاءت ثورتهم عارمة تجتاح ما أمامها، ذلك لأنّ الفرق بين الحلم والضعف دقيق غاية الدقة.

وفي إحدى مرثي المهلهل لأخيه كليب، فهو يعدد مناقبه فيذكر منها أنّه كان حليما عفوا مع قدرته على العقاب والانتقام،

فقال:

وإنّك كنت تحلم عن رجال
وتعفو عنهم ولك اقتدار⁴

وقال عبد قيس بن خفاف:

وإذا هممت بأمر سوء فأتد
وإذا هممت بأمر خير فافعل

وإذا تشاجر في فؤادك مرّة
أمران فأعمد للأعف الأجمل⁵

1. ديوان عامر بن طفيل، 1959م، دار صادر، بيروت، ص 58

2. أبو تمام، الحماسة، المرجع السابق، ص 101

3. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج 12، ص 140

4. لويس شيخو، 1999م، شعراء النصرانية، بيروت، لبنان، ج 1، ص 163

5. أبو تمام، الحماسة، ج 2، ص 2

جاءت أشعار كثيرة في الحلم، اقتصرت على شعرين دون الاستقصاء، وكان العرب يفضلون الحلم ويمدحونه، وكذلك ينكرونه إذا كان مطلقاً، فيعتبرونه عندئذ ذلّة لا تطيقها أنفهم، ولذا كانوا يشيدون ببعض الشدّة والعنف في أحوال معيّنة.

الصبر والقناعة

فقد عاش العربيّ في بيءاء مليئة بالمخاوف من الوحوش الضّارية، والحيات السّامة، وتعودّ على هذه الحياة، وصبر على التّفرد بالفلوات والقفار، لأنّه جبل على هذا الخلق، فقد صبر على أهوال المعارك وعلى نوائب الدّهر، ولم يثنه هذا الخلق على ما نزل به من نوازل، وما حلّ به من خطوب جسام، فهو يخشى شماتة الأعداء، ولؤم الأصدقاء، وهو حرّ كريم يأبى الدّلّ والجزع، لأنّه أدرك أنّ الجزع لا يُجدي نفعاً، ولا يردّ فقيداً، لذلك تمسّك بهذا الطّبع، وأثنى على الصّابرين في البأساء والضراء، وافتخر بذلك، وتجرّع مرارته، فتعودّ على هذه الحياة وصبر عليها وصبر على نوائبها وفي ذلك يقول الجّمّال العبدي:

لا النائبات لهذا الدهر تقطعني والصبر مني على ما نابي خُلُقُ
إنّ الكريم صبور كيفما انصرفت به الصروف إذا ما أفلق الفرق¹

وأحسن ما قيل في الصبر على نوائب الدهر قول عبيد بن الأبرص:

صبر النفس عند كلّ ملم إنّ في الصبر حيلة المحتال
ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجةٌ كحل العقال²

ولا بأس من الاعتذار عند الجزع إذا عظمت المصيبة وجلّت، كما ذكر الأعشي راثياً:

فإن جزعنا فمثل الخطب أجزعنا وإن صبرنا فإننا معشر صبر³

عفة النفس والغيرة

العفة وهجر ما عند الآخرين والترفع عن ذلك كان من صفات الأشراف، يقول عبيد بن الأبرص:

لعمرك إني لأعف نفسي وأستر بالتكرم من خصاص⁴

يقول الأصبع العدواني عن عفة نفسه ولسانه عن فحش القول وفاجره، وعن كبحه نفسه وانتصاره عليها حتّى لا يلام

بإثم ليس من خلقه:

ولا لساني على الأدنى بمنطق بالفاحشات ولا فتكي بمأمون

1. حماسة البحري، ص 128

2. ديوان عبيد بن الأبرص، ص 128

3. حماسة البحري، ص 131

4. ديوان عبيد، 1958م، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ص 86

عَفَّ يُوُوس إذا ما خفت من بلد هونا فلست بوقاف على الهون¹

وانظروا إلى عنتره بن شداد يجهر بأنه ما كان يدخل المعارك طمعا في الغنائم رغم كونه من الفقراء، بل كان يقنع بما يجده في حياته، فهو يقول ذلك مخاطبا محبوبته عبلة:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلم
يخبرك من شهد الوقائع أنني
أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم²

وانظروا إلى عفة نفس الشنفرى حين يتناول الطعام مع أصحابه، يتفضّل على الآخرين وهو أحوجهم إلى ملء بطنه. هذه قاعدة تربويّة على كلّ إنسان إدراكها ليقضي على الشره والطمع. فإذا طبّق الإنسان ذلك فهو الغني المتفضّل، يقول الشنفرى:

وإن مدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن
بأعجلهم إذ أشجع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطة عن تفضّل
علمهم وكان الأفضل المتفضّل
وأعدم أحيانا وأغنى وإنّما
ينال الغنى ذو البعده المتفضّل³

صلة الرحم

إنّ صلة الرحم فهي علاقة فطريّة بين الإنسان وذويه. وإننا نجد في شعر ذلك العصر ما على أنّ بعضهم جنح إلى جمع شمل الأسرة. ومن صلة الرحم أن يكون الإنسان لئيم الجانب لأهله. وهذا من الأمور الصعبة الوجود في العصر الجاهلي لأنّ في قلوبهم شيئا من الغلظة والصلابة، لا تنقاد للنصح بسهولة، وذلك الذي دفع الشعراء أن ينادوا بلين الجانب موصولا بصلة الرحم، ونصرة العشيرة متى نزل بها مكروه، يقول الأعشى:

ولا تزهدن في وصل أهل قرابة
ولا تك سبعا في العشيرة عاديا
ولا تخذلن القوم إن ناب مغرم
فإنك لا تعدم إلى المجد داعيا⁴

يقول الشاعر عبيد في صراحة تامّة تقديره لوالده، وأنّه يبذل قصارى جهده لكي يصون أباه ويحفظ عرضه، وإن الإنسان بارّ بوالديه أو بأحدهما فهو حميد الصفات كريم الخصال، فقال:

وأكرم والدي وأصون عرضي
وأكره أن أعدّ من اللئام⁵

1. المفضليات، ص 160

2. ديوان عنتره، ص 209

3. ديوان الشنفرى، ص 61-62

4. مختار الشعر الجاهلي، ج 2، ص 302

5. ديوان عبيد بن الأبرص، ص 86

وكان حاتم يدعو إلى صلة الرحم وإكرام الأهل والعشيرة بأن يكون الإنسان متحملاً عنهم صعوبة حياتهم، ومتجاوزاً عن هفواتهم، وحالاً لمشكلاتهم، وكافاً لأذى الغير عنهم، فقال:

تحلّم عن الأدين واستبق ودّهم فلن تستطيع الحلم حتى تحلّمًا
متى ترق أضغان العشيرة بالأناة وكفّ الأذى يحسم لك الداء محسماً¹

حماية الجوار ورعاية الجار

وقد وضح لنا الشعر العربي أن ثمة أعرافاً سار عليها الإنسان في الجاهلية والتزم بها تجاه الجار. وأهمها حمايته والدفاع عنه كفرد من أفراد قبيلته. ويرينا أيضاً في بعض جوانبه أن القبيلة إذا ما قبلت بجوار شخص، وجب على أبنائها أن يراعوا حقه، فيضمنوا له الحماية، ويكفلوا له عدم الاعتداء عليه أو على أهله وماله. فإذا حدث من ذلك شيء كان عليهم أن يوفوا بدمتهم، ويعرضوا جارهم ما أصابه، أو ما فقد منه، وإلا أصبحوا عرضة للذم والهزاء.

وأن قيمة الوفاء للجار قد ترسخت في نفوس كثير من العرب، فلا غرابة أن يعدها الشعراء في أشعارهم من أبرز المفاخر. ولا يقتصر الفخر بحماية الجار ورعايته على الفرد وحده، بل يمتدّ ليشمل القبيلة كلها. ويفخر الشاعر بقبيلته بكونها حريصة على من يجاورها، وأمينة على أهله وماله، ووفية له مدة جواره لها.

وكذلك كلمة الجار تشمل من يسكن في البيوت المجاورة. فعلى الإنسان حقوق لهم، والمجتمع الجاهلي أدّى هذه الحقوق في أكمل وجه.

ويعبّر الشاعر عمرو بن كلثوم عن حماية قومه للجار بأنهم كانوا يدافعون عن ديار الجيران قبل الدفاع عن ديارهم، ويدروون الأخطار عنهم قبل أنفسهم، ويدفعون عنهم الديات إبقاء على حسن جوارهم. وفي ذلك برهان عن الإيثار الخلقي، فيقول:

ونحن إذا عماد الحيّ خرت على الأحفاض نمنع من يلينا
ندافع عنهم الأعداء قدما ونحمل عنهم ما حملونا²

والشاعر الأعشي هجا قوماً بأنهم يملئون بطونهم ويتركون جيرانهم جوعى لا يجدون ما يطعمون، لأنّ في ذلك عيباً وإهانة لا تغتفر. فلا يفعل ذلك إلا من حقرت نفسه وضعفت عزيمته. والأولى للكريم أن يمدّ يد العون لجيرانه حتى تتألف القلوب، فقال:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

1. موسوعة الشعر العربي- العصر الجاهلي- ص 501

2. الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص 126. ومختار الشعر الجاهلي، ج 2، ص 366

يراقبن من جوع خلال مخافة نجوم السماء الطالعات الشواخص¹

وافتخر كثير من الشعراء بإكرام جيرانهم، ومن ذلك قول الشاعر المنقّب العبدي:

أكرم الجار وأرعى حقّه إنّ عرفان الفتى الحق كرم²

وصرّح حاتم الطائي عن نفسه بأنّه لا يتطلّع على أسرار الجار، ولا على معرفة سرّ بيته ليفضحه، لأنّه يعلم أن الكريم

من اكتمل شمائله، فقال:

فأقسمت لا أمشي إلى سرّ جارة مدى الدهر ما دام الحمام يغرد³

الشجاعة

ويرينا الشعراء أن الشجاعة كانت أبرز القيم لما لها من أثر في حياة الإنسان العربي ومعايشه، وأظهر العربي الشجاعة

للدفاع عن النفس وعن القبيلة وعن الحقّ، ذلك أن حياة البادية التي عاش فيها العربي طلبت منه قوة في مواجهة الدفاع عن

القبائل الأخرى. وكانوا لا يقبلون ذلاً ولا هواناً، وصاحوا في أسواقهم وأشعلوا حروباً وضحوّوا أنفسهم. ومدحوا الإقدام والموت في

ظلال السيوف، وهجوا الموت على الفراش وسّمّوه حتف الأنوف. قال السموأل بن عاديّا عن ذلك:

وما مات منّا سيّد حتف أنفه ولا ظلّ منّا حيث كان قتيل

تسيل على حدّ الظبابة نفوسنا وليس على غير الظبابة تسيل⁴

العدل

جاء في الشعر الجاهلي طلب العدل من الملك بالتفريق بين المذنب والبريء، وهذا هو أحد أركان معلّقة الحارث بن حلّزة،

فقال:

وأتانا من الحوادث والأنباء خطب نُعنى به ونساء

أن إخواننا الأراقم يغلون علينا في قيلهم إحقاء

يخلطون البريء منّا بذئ الذنب ولا ينفع الخليّ الخلاء⁵

1. ديوان الأعشي، دار صادر، ص 94

2. موسوعة الشعر العربي - العصر الجاهلي - ج 2، ص 188.

3. ديوان حاتم، ص 35.

4. ديوانا عروة بن الورد والسموأل بن عاديّا، 1964م، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ص 91.

5. الزوزني، شرح المعلّقات السبع، ص 156، 157.

الحكم والأمثال

الحكمة قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة، ويكون الحكم سليمة تقبله العقول وتنقاد له النفوس والمشاعر، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم.

وفي ديوان زهير نجد عنه كثيرا:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم¹
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم²

الحزم

الحزم هو ضبط الأمر والأخذ فيه بثقة، وهو استعمال الشدة فيما يقتضي الشدة، واللين حيث يحسن اللين. وهو الحسم في إرادة الفعل مع التية الخالصة لتحقيقه ومطابقة القول الفعل. وهذه الصفة اعتبرت شرفا للإنسان في ذلك المجتمع، ولذا افتخروا بها. كما نلاحظ ذلك في قول الخنساء التي تحدتت عن أخيها صخر:

وما الحزم في العزاء والجود والندی غداة يرى خلف السيارة والعسر³

القيم الروحية في ظلال الشعر الجاهلي

ونظر العرب في العصر الجاهلي إلى الله نظرا بأديانهم السابقة، يرضى على قومه تارة، ويسخط عليهم تارة أخرى، وهو الذي ينزل الروح على من يشاء، ويردها متى شاء، واتبعوا ما عرفوا في التوراة والإنجيل، وقد ظهر هذه الأفكار في الشعر الجاهلي، على أن الشاعر الجاهلي لم يعالج مشكلة الله معالجة عامة، ولم ينظم في الله قصيدة تأملية خاصة، بل كان يذكره عرضا ببيت من الشعر أو بيتين لحاجة في نفسه، دون أن يبحث في جوهره،⁴ وينفقون من غير انتظار لوجه الله أيضا في كرم بعضهم، لأن العرب في العصر الجاهلي نظروا إلى الله كما نظر الإسرائيليون إليه من قبل، وجل ما نجده عن فكرة الله آراء متفرقة هنا وهناك، بعضها متأثر بالأراء الإسرائيلية وبعضها بالمسيحية. ويقول حاتم:

فلو كان ما يعطى رياء لأمسكت به جنبات اللوم، يجذبني جذبا

1. عبد الستار السطوحي، مختار من روائع الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، دار الاعتصام، ص 12.

2. شرح المعلقات السبع، ص: 89

3. الخنساء، ديوانها الشعري، تحقيق عبد الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 42.

4. القيم الروحية في الشعر العربي، ص: 82، 83.

ولكنّما يبغى به الله وحده فأعط، قد أريحت، في البيعة الكسبا¹

وقال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل²

وآمن من لديه المعرفة عن الأديان السابقة، أن الله الحاكم الأكبر الذي يقسم الخلائق إلى درجات، والله يمنح السائل،

وهو الخالد وغيره زائل وباطل، وهو غفور رحيم شكور، وقول لبيد عليه:

فأقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها³

وقال عبيد بن الأبرص:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

بأنه يدرك كل خير والقول في بعضه تلييب⁴

وقال عبدة بن الطبيب:

أوصيكم بتقى الإله فإنه يعطي الرغائب من يشاء ويمنع⁵

وقال السفاح بن بكير:

صلى على يحيى وأشياعه رب غفور وشفيع مطاع⁶

ومن قصائد أمية بن الصلت وهو يمتاز عن الآخرين لانتمائه بالمسيحية، وهو يؤمن أن الله خلق السماوات والأرض

والشمس والقمر والنجوم وغيونا وأنهارا والليل والنهار فهو الواحد الصمد المحي والمميت، كقوله:

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال

بناها وابتنى سبعا شدادا بلا عمد يرين ولا رجال⁷

وقال:

1. ديوان حاتم الطائي ص 41

2. ديوان لبيد، ص: 28

3. شرح القصائد العشر ليحيى بن علي التبريزي، ص: 173

4. جمهرة العرب لمحمد بن الخطاب القرشي، ص: 372

5. المفضليات للمفضل بن الضبي، ص: 61

6. المفضليات، ص: 154

7. ديوان أمية بن الصلت، ص: 49

خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدر

ثم يجلو النهار رب كريم بمهارة شعاعها منشور¹

إن ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، فقد آمن بإله واحد قادر وهو الذي رأت خديجة أن تستعين به عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وكان له خبرة بالديانات وتاريخها، والنبوات وسننها، ومعرفة بأهل الكتاب الذين عندهم أخبار الأنبياء وعلمهم². وهو كان من الشعراء المسيحيين:

لا تعبدنَّ إلهاً غير خالقكم فإن دعوكم فقولوا بيننا حدُّ

سبحان ذي العرش سبحاناً يعادله ربُّ البرية فرد واحد صمدٌ

مسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغي أن يناوي ملكه أحد

لا شيء مما نرى تبقى بشاشته يبقى الإله ويؤدي المال والولد³

خاتمة البحث

هذا البحث يصوّر قيم المجتمع الجاهلي التي شاعت خاصة على ألسنة الشعراء ومزايهم وشخصياتهم ومفاخرهم كما فاض على لسانهم الدين الروحي الجذاب شعرا للمتذوقين في أغراض كثيرة. وغرضنا في هذا البحث أن نكشف ما يضمن الشعر الجاهلي بالأمور المحبوبة الغامضة والقيم الروحية في هذا الميدان.

فإن الشعر من عقلية الأمة يعبرها شاعر تلك الأمة. ونحن عندما ندرس عن الشعر الجاهلي يتصور في ذهننا صورة غير ما نذكر في هذا البحث، ولإزالة هذا المفهوم الخاطئ قام الباحث في هذه العجالة أن يكتشف تصويراً جديداً مستدلاً ضمن الشعر الجاهلي للنكات التي يأتي بذكرها. وهناك من يذكر أن الشعر الجاهلي قائم على الإحساس المادي، والبعض يعبر أنه خشونة ألفاظ الشاعر تارة ونعومته تارة أخرى، أو تعبير عن فظاظه طباعه، وانفعالاته الفطرية الثائرة أو عن لطيف معشره وأدبه. والبعض يقول: إذا أردت أن تعرف عن الشعور الإنسانية ادرس الشعر الجاهلي، خلاف هذه الآراء والأقوال الجائرة قام الباحث بحثاً علمياً لإرشاد طالب الأدب العربي أن ينهل من داخل الشعر الجاهلي فلسفة علمية وأدبية يتبنى به حياته الأدبية العلمية، لأن الأدب الحقيقي هو الذي يرفعنا عن المادية، فإنّ دراسة الشعر الجاهلي يمهّدنا إلى اتباع قيم جليّة ومحمودة لدى الإنسانية كما يجعلنا بعيدين عن سفاسف الأمور، معتصماً بالمثل العليا والأخلاق الفاضلة. وأن العرب عرفوا بفضائل ومكارم الأخلاق، ولم يكونوا

1. ديوان أمية بن الصلت، ص: 37-38

2. السيرة النبوية للإمام أبي الحسن علي الحسيني الندوي، ص: 118

3. الأغاني، ج 3، ص: 121

يفعلون الخير لذاتهم فحسب، بل كانت فيهم عقّة واعتدال وزهادة في اللذات. والأمثلة على هذا الموضوع غزير، ويحث الباحث على دراسة هذا البحث العلمي طلاب اللغة العربية وأدبها والباحثين في مجال اللغة والأدب، وينفعوا بها الإسلام والإنسانية جميعاً.

المصادر والمراجع

1. ابن أبي الصلت، أمية، 1934م، ديوان أمية بن أبي الصلت، المطبعة الوطنية، بيروت.
2. ابن دريد الأزدى، مقصورة ابن دريد، 1339م، مطبعة وسطى الحلبي، مصر.
3. ابن رشيق، الحسن، تحقيق محمد معي الدين عبد الحميد، 1981م، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان.
4. أبو تمام، 1889م، شاهين عطية، ديوان أبي تمام الطائي، المطبعة الأدبية، بيروت.
5. أبو تمام، 1927م، شاهين عطية، ديوان الحماسة شرح التبريري، مطبعة السعادة، مصر.
6. أبو تمام، شرح الأعلام الشمنطري، تحقيق علي المفضل حمودان، 1992م، الحماسة، ط1، مركز جمعية الماجد، دبي.
7. الأصبهاني، أبو الفرج، الأغاني، 1936م، دار الكتب المصرية، بيروت.
8. الأعشى، ميمون بن قيس 1994م، ديوانه، دار صادر.
9. التبريزي، شرح القصائد العشر، 1352هـ، المطبعة المنيرية، مصر.
10. تميم بن مقبل، شرح مجيد طراد، 1998م، ديوان تميم بن مقبل، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان.
11. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، 1965م، الحيوان، ط2، طبعة الباي، مصر.
12. حاتم، تحقيق وشرح حسين نصار، دت، ديوان حاتم، شركة مصطفى الباي الحلبي.
13. الخنساء، تحقيق عبد الحوفي، دت، ديوان الخنساء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
14. زهير بن أبي سلمى، شرح علي حسن فاعور، 1988م، ديوان زهير بن أبي سلمى، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
15. الزوزني، الحسن بن أحمد، 1997م، شرح المعلقات السبع، ط2، دار إحياء العلوم، لبنان، بيروت.
16. عنتر، أمين سعيد، شرح ديوان عنتر، المطبعة العربية، مصر.
17. القرشي، محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، 1330هـ، المطبعة الخيرية، مصر.
18. قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، 1962م، ديوان قيس بن الخطيم، مكتبة دار العروبة، القاهرة.
19. ملحس، ثريا عبد الفتاح، القيم الروحية في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت.